ابن سنان :

وعقد ابن سنان الخفاجي (— ٤٦٦هـ) في كتابه «سر الفصاحة» فصولا ضافية تحدث فيها عن صفات الحروف ومخارجها. وفصاحة اللفظة المفردة والالفاظ المؤلفة:

والفصاحة عنده — : «الظهور والبيان» ، (١) والفرق بينها وبين البلاغة «أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع المعاني . لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا » (٢) .

ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة ينبغي ان تتوفر فيها بعض الشروط ، قال «ان الفصاحة على ما قدمنا نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم. وتلك الشروط تنقسم قسمين فالاول منها : يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم اليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه .

والقسم الثاني : يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض » (٣) .

فاما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

الاول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة ذلك أن الحروف التي هي اصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة .

(١) سر الفصاحة ص٥٩.
(٢) سر الفصاحة ص٦٠.
(٣) سر الفصاحة ص٦٥.

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جلّ كلام العرب عليه ، فأما تأليف الحروف المتقابلة فمثل «المضغ» ، وقد رُوى أن الخليل بن احمد الفراهيدي قال : «سمعنا كلمة شنعاء هي المضغ » وانكرنا تأليفها ». وقيل : ان اعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى المضغ » (١) . وقال ابن سنان : «وللحروف الحلق مزية في القبح اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات »(٢).

الثاني : ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسن ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة كما نجد لبعض النغم والالوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره من جنسه . ومثاله في الحروف «ع.ذ.ب» فان السامع يجد لقولهم « العُذيب» ـ اسم موضع ـ و« عذبة» ـ اسم امرأة ـ و«عذب وعذاب » و« عَذْب» و«عذبات» مالا يجده فيما يقارب هذه الالفاظ في التأليف . وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدّمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الاولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير . وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو قناً أحسن من تسميته صاوجا ، وان أغصان البان أحسن من صالوج الشوحط(٣)؛ ومن الكلمات العذبة الجميلة «تفاوح» وقد استعملها المتنبي فقال :

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده (٤)

وهي في غاية من الحسن ، وقيل : ان المتنبي أول من نطق بها على هذا المثال، ومثال مايكره قول المتنبي :

---

(١) سر الفصاحة ص٥٧.

(٢) سر الفصاحة ص٦٧.

(٣) الشوحط : شجر يتخذ منه القسي.

(٤) الرند : العود ، او الآس ، او شجر طيب الرائحة.